خطاب المقدّمات في شروح - مخطوطة -

لما أبدعه الحَريري من مقامات

بوجمعة جمّي

لقد دأب مؤلفو الكتب منذ القديم على نهج سنّة التمهيد لمؤلفاتهم بمقدمة غالباً ما تتضمّن الإشارة إلى دوافع التأليف والمنهج والمضمون والهدف واسم المؤلّف وكاتبه ، وخاصة في الكتب التراثية . ولعل خطاب مقدمات المؤلف التراثية تختلف عن خطاب المقدمات في المؤلفات الحديثة التي انفتحت على الثقافة الغربية ، وتأثرت بجوانب من منهج التأليف فيها ، وضمنه خطاب المقدمات الذي تأثر بالطابع الإعلامي ، حيث شاعت كتابة مقدمة الكتاب من قِبَل مقدم آخر غير المؤلّف . فأصبحت تحمل حُمولة من الخصائص والمقاصد التي دعت إليها دوافع أخرى .. لا تربطها لحمة بمضمون الكتاب ومَقصدِيته .

وقد نجد في خطاب مقدمات التراث خصائص تبدو بعيدة عن صلب المضمون ، لكنها محدودة ؛ مثل معالم مُخلّفات نشوة إعجاب المؤلف بعمله الإبداعي والعلمي ، وافتخاره بسبْقه إلى إبداع ما لم يتمكن الآخرون من الخوض فيه ، وكذا الانتقاص من قيمة ما كتب في ذلك المجال ، لكونه لم يُشف غليله ، وقد يؤوّل المتفحص لمقدمات كتب التراث دلالة بعضها فيستنتج مقاصد أخرى ، وغير ذلك مما يدور في هذا الفلك ، لكن خطاب مقدمات المؤلفات التراثية يُثبت فيها المُصنّف معارف توثيقية بالغة الأهمية لا تقبل الإقحام في مضمون مؤلَّفِه ، وسنشير لشاهد على ذلك أثناء عرض فقرات من مقدمة بعض شروح المقامات الحريرية .

لقد توخينا من إثارة قضية الفرق بين خطاب مقدمات المؤلفات التراثية ، وخطاب مقدمات الكتب الحديثة التي انفتح كُتَّابها على مناهج الكتابة عند المؤلفين الغربيين وكذا المستشرقين ، طرْحَ تساؤلات كبرى عن طبيعة صياغتها وعلاقتها بمضمون الكتاب ، ومَقصديَّة واضعها ، وأثرها على عقل الناظر فيها ، وتعامل نفسيَّته معها ، إلى غير ذلك من التساؤلات التي تنصبُّ رأساً على هذا الموضوع الشائك الذي أعتقد أنه في حاجة إلى دراسة عميقة ومتأنية انطلاقاً من النص المُقدِّمي ، وذلك بعد قراءة المؤلَّف المُقَدَّم له ، والقيام بمقارنة بين القضايا والأفكار والآراء التي وردت في مضمونه ، وبين ما " تدَّعيه " المقدمة ، كي يتأتّى للدارس تكوين رأي موضوعي حولها ، وإصدار حكم عليها يُنصِف كاتب هذا الخطاب المقدِّمي .

وقبل التطرق إلى دلالة " خطاب المقدمات في بعض شروح مقامات الحريري المخطوطة " آثرت أن أحدد تحديداً موجزاً مفهوم لفظة " خطاب " في المعجم العربي وفي منظور بعض اللسانيين وكذا دلالته عند ارتباطه بمجال معيَّن من مجالات البحث والإبداع ، لأنه اقترن بلفظة " المقدمة " التي هي بيت القصيد .

فابن منظور – غيره من أصحاب المعاجم العربية – يعرف المخاطبة بقوله : " المخاطبة : مفاعلة ، من الخطاب والمشورة "(١) التي قد يكون هدفها البحث والتحفيز ، مما يجعل " الخطاب " ذا دلالة إقناعية . وفي منظور اللسانيين يعتبر الباحث الفرنسي " بنْفِنِسْتْ " "كل تلفظ يفترض متكلماً ومستمعاً ، وعند الأول هدف التأثير على الثاني بطريقة ما "(٢)، أمَّا معناه عند " دوسوسير" فهو الكلام . في حين نجد " موشلر " يوافق ابن منظور في تعريفه للخطاب بالمشاورة ،

حيث حدد له معنى الحوار .

لكن لفظة " الخطاب " قد يهيمن على تحديد دلالتها طابع مجال معيَّن من المجالات التي تكون موضوعه ؛ فعلى مستوى الإبداع الروائي ؛ الخطاب هو الطريقة التي تُقدم بها مادة الحكي ، أما على المستوى الفكري فقد أخضع الدكتور محمد عابد الجابري تحديده لمفهوم الخطاب إلى النص لما قال : " النص رسالة من الكاتب إلى القارىء ... الكاتب يريد أن يقدم فكرة واضحة أو وجهة نظر معينة في موضوع معيَّن ، وهذا خطاب "(٣) .

وأعتقد أن الخطاب هو قناة تواصل تمكّن المخاطِب المرسِلَ من تبليغ ما أوحى به فكره وشعوره تبليغاً يَحمِله أسلوبٌ متضمِّن لِتقنيّات الإقناع المؤثر ، حسب شخصية كل مخاطب ومستواه الفكري العام ومقصديته ، وعلى مستوى التحاور – المباشر أو غير المباشر – قد يتقاطع مع خطاب آخر معاكس يؤثر في مكوِّناته ومَجراه وأسلوبيته .

أما الدافع الذي أعتقد أنه يضفي المشروعية على اختيار شواهد لخطاب المقدمات من موضوع : " خطاب المقدمات في شروح – مخطوطة – لِما أبدعه الحريري من مقامات " فهو أن مقامات الحريري حظيت باهتمام الكثير من العلماء والأدباء والباحثين ، حيث بلغت شروحها التي تمَّ الكشف عن أسماء شُرَّاحها ستين شرحاً(٤) أورد حاجي خليفة في كشف الظنون ثلاثة وثلاثين اسماً منها ، فضلاً عن نُكَتِ ابن الخشّاب وانتقاده لها(٥) . ويكفي في إبراز أهميتها شهادةُ الزمخشري الذي قال :

أقســــم بـــــالله ... .
أنَّ الحريـري حَـريٌّ بـأن نكتُـبَ بـالتّبْر مقاماتـه[٦]

وكـذا أثرهـا في الآداب الأجنبيـة كـالآداب الأوروبيـة ، والآداب الفارسية ، والآداب العِبْرية ، على الرغم من كون اليهود لا يقتبسـون مـن آداب أقـوام آخريـن إلا نـادراً ؛ فقـد ترجـم الأديـب اليهودي " ابن شلومو الحريزي " مقامات الحريري إلى العِبْرية ، فأنشأ على غرارها خمسين مقامة أسماها " سفر تحكموني " أي كتاب الحكمة التي تضمَّن كثيراً من آيات التوراة[٧] مما جعل الدكتور أحمـد شحلان يعتقد أن " شلومو الحريزي " كان متـأثراً فيهـا بـالنموذج العربـي إلى درجة أنه غيَّر اسمه فأطلق على نفسه " الحريزي " أي المُسْـجِع الـذي يضع كلاماً مسجوعاً[٨] وقد أوردت هذا الاسـتدلال للإسـتئناس بـهِ، وإلا فإن إثبات أهمية مقامات الحريري في غنى عنه .

ويقـول الأسـتاذ عبدالقـادر زمامـة : " وقـد كـانت مقامـات الحريـري - بـالخصوص - ذات أهميـة كـبرى عنـد المغاربـة والأندلسيين؛؛ حفظوهـا وشـرحوها واقتبسـوا منهـا ورَوَوْهـا عـن أشياخهم كما يروون كتب الفقـه والحديـث واللغـة بطريقـة الإسـناد المعهودة عندهم ، وكان لها تأثير كبير في الأساليب الأدبيـة والرسـائل الرسمية والخُطب المنبريَّة "[٩].

وسنقتصر على النظر نظرة وجيزة في خطـاب مقدمـة كـل شرح مـن الشـروح الخمسـة الـتي همَّـت مقامـات الحريـري ، والـتي مازالت مخطوطة ، بالإضافة إلى شرح سادس مهمٍّ مطبـوع طبعـة غـير محقَّقة .

فأبدأ بخطـاب مقدمـة شـرح الفنجديهـي المسـعوي (٥٢٢ – ٥٨٤هـ) الموسـوم "بمغـاني المقامـات في مَعـاني المَقامـات "(١٠) الـذي نستشف من عنوان مؤلفه تقديـره الكبـير لقيمـة المقامـات الحريريـة ، حيث اعتبرها إبداعاً ذاع صيته فلم يحتج إلى نسبتها إلى مُبدعها ، بـل اكتفى ، كما بالعهديّة التي أَلِفْناها في " الكتاب " لسيبويه .

وقد مهّد الفنجديهي لخطـاب مقدمتـه بديباجـة دينيـة كـدأب المصنّفـين القدامـى ، ثـم ركّـز علـى تقنيـة الإقنـاع المتمثلـة في تقديـم مسوغات التعامل مع مقامات الحريـري المشـهورة بألفاظهـا الغريبـة ، وأساليبها المعقّدة ؛ السمة التي قد تنفّر البعض من الإقبال على قراءتها مقرونةً بشرحه لها فسخّر خطاب المقدمة لتحقيق هدفين أساسيْن :

أولهما : تقوية شرعية الاهتمام بشرحها .

وثانيهما : التلميح لقيمتهـا ، لمـا تتضمنـه مـن ذخـيرة لغويّـة وأسلوبيَّة .

وحيث إن الرجل فقيه ومعلم للملـك الأفضـل بـن السـلطان صلاح الدين ، فإنه عضّد أسلوب إقناعه للقارىء بالضرب على الوتر الديـني ، فقـال في فضـل اللغـة العربيـة : " إذ هـي ترجمـان القـرآن ، وقهرمان العُربان ، وأساس العلوم "(١١). ثم تطـرق إلى أسـلوب آخـر لاستقطاب القُرّاء للنظـر في عملـه العلمـي فقـال : " فأمـا مشـكلات الألفاظ ومعضلات الألحاظ ، فقد اسـتوضحت قضَّهـا بقضيضهـا مـن مشاهير المصنّفات ، وجماهير المؤلفات ؛ مثـل كتـاب العيْـن ، وكتـاب التهذيب ، وكتاب الجمهرة "(١٢) فأورد أسماء عشـر مصنّفـات لغويـة وأدبية تُعَدّ مـن الأمهـات . ولعلّـه خشـي أن يظـن البعـض أن شـرحه

متضمن ما تداولته الأفواه ، فأبعد هذا الظن بقوله : " وأما ما تداولته الأفواه وتناولته الشفاه من الكلمات التي عُقدتُها مُنحلّة .. فأعرضتُ عن شرحه صفحاً .."، وفي هذه الإشارة إشادة بما أبدعه . ثم استمر في تسخير مثل هذا الأسلوب الذي يُغري بالإقبال على قراءة مؤلّفه فقال: " وماعدا ذلك من الأحاديث المشهورة ولقطات الأدب هي قُراضات الذهب .. فلازلتُ أنقّب عنها في التّرحال .. وأستفيدها من فرسان الأدب الأبطال ". وبهذا الأسلوب رام تحقيق هدف خطاب مقدمته ، مبرزاً قيمة مختلف المعارف التي استقاها من الأمّهات اللغوية والنحوية والأدبيَّة وملمحاً لجهوده التي أثْمرت ما أبدعه .

الشرح الثاني هو شرح العُكبري عبدالله بن الحسين (٥٣٨ – ٦١٦هـ) الذي شذ عن شُرَّاح مقامات الحريري المشهورين بشروحهم المطوَّلة ، حيث اتسم خطاب مقدمته بالإيجاز الشديد – شأنه شأن شرحه الموجز – إذ لم تتعدَّ النّص الآتي :

" الحمد لله على فضله العظيم وصلواتُه على رسوله الهادي إلى صراط مستقيم وعلى آله وأصحابه وأتباعه على دينه القويم .

أما بعد : فإني لمّا رأيت " المقامات الحريريَّة مشحونة بالألفاظ اللغوية ، وهي أحد الكتب التي عني بها علماء العربية ، دعاني ذلك إلى تفسير ما غُمض من ألفاظها على الإيجاز ، وقد كنت عثرت لبعض الناس على شيء من ذلك إلا أنه أسهب فيه بما لا يحتاج إليه ، وربما فسَّر اللفظة بغير ما قصده مُنشئها ، والله الموفق للصواب "[١٣] .

لقد أشار العكبري إلى ما يضفي طابع الشرعية على عمله العلمي ، فأوجزه في :

١ – كثرة غريبها مما يستدعي كشف غموضها بشرح موجز مركّز .

٢ – لمزه بكلمة انتقادية الشرّاح المُسهبين في شرحهم لألفاظها . ولعل امتعاضه من عملهم هذا جعله يعْدل عن تسميتهم بالعلماء إلى نعْتهم " ببعض الناس ".

٣ – اعتباره الإسهاب عيباً في منهج شرح المَتْن ، لأن هؤلاء الشرّاح المسهبين في شرحهم ينزلقون إلى تفسير اللفظة بغير ما قصده مُنشئها ، فهل تضايق العكبري من أصحاب الشروح المطوّلة ، وخاصة الذين عاصرهم ، مثل : أبي السعادات تاج الدين الشافعي (ت. ٥٨٤هـ) ، وسَلامة الضرير (٥٩٠هـ)، وصدر الأفاضل القاسم بن الحسين (ت ٦١٧هـ)، وأبي العباس أحمد بن عبدالمؤمن الشريشي (ت ٦٢٠هـ) ؟! أم ضاق ذَرعاً بشروحهم المثْقلة بالإستطراد ؟! أم أنه وقف – فعلاً – على أخطاء كان الإسهاب من أسبابها – وهو العالم اللغوي والأديب الفقيه – مما جعله يجزم بأن من يود فهم معاني المقامات الحريرية يكون في غنى عن الاستطرادات الطويلة التي حُشرت في الشروح المطوّلة ، والتي قد تخدم أهدافاً للشارح لا تربطها لحمة بمرامي صاحب المتن ، لأن شرح اللفظة المقرونة بالاستطراد الطويل الذي يتحوّل إلى تحليل موضوع آخر ، يقطع الحبل الذي يربط القارىء بالمتن . فالاسترسال في قراءته استرسالاً يقطعه شرح موجز للفظ يمكن القارىء من تتبع مراحل النص المترابطة لإدراك معناه ودلالته . وعليه فلعلّ العكبري قد وُفِق في إقناع القارىء بقراءة مصنّفه ، متخذاً خطاب مقدمته المختصر وسيلة مهمة لهذا الإقناع ، وخاصة عندما يقتنع القارىء بمثل هذا الاستنتاج .

الشرح الثالث المطوَّل هو شرح شمس الدين محمد بن أبي بكر الرازي (ت ٦٦٠هـ) ومخطوطته مؤلفة من جزئين[١٤] نهـج فيـه نهـج الفنجديهي ؛ فبعد الحمدلة والصلاة على النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، والترحّمُ على الحريري ، أثنى على إبداعه المتميّز بَيْن الأجناس الأدبية الأخرى بقولـه : " وكـان كتـاب المقامـات اللاتـي أنشأها الشيخ الإمام أبو محمد القاسم بن علي بن محمد عثمان الحريري البصْري رحمه الله واسطة عِقده ، وخلاصة نقده ، وسنا مصباحه ، وضياء صباحه ، وأزهار بستانه "[١٥].

ومما يشدّ الألباب في استهلال خطاب هذه المقدمة قوله : "وخلاصة نقده " الذي ضمّن دلالته جانباً مهماً من أسلوبيَّة الحريري في عمله الإبداعي هذا ؛ حيث أبان عن كونه عمل على نقد حالات اجتماعية وأخلاقية ، وأوضاع اقتصادية ... متوسلاً لذلك بأسلوب الحكي والسرد اللذين طغيا على تركيب بنية مقاماته ، فكأني بشمس الدين الرازي يقوّم مصنّف الحريري في جملة ذات دلالة هادفة .

ثم عمد إلى إبراز مميزات تميز شرحه عن باقي الشروح التي اتّسم بعضها بالطول الممل ، والبعض الآخر بالإيجاز المُخلِ – وهما عبارتان نقديتان ترددتا في بعض مقدمات شروح المقامات الحريرية – وهو ما يوحِي بأنه قد سبقه شرّاح آخرون ، لكنّ شروحهم لم تُشْفِ غليله ، ثم استرسل في عرْض تلك المميزات ، مشيراً بأسلوب إقناعي، إلى منهجه في الشرح ؛ مثل قوله : " أحببت أن أشرحه شرحاً متوسطاً بين الإيجاز المُخل ، والتطويل المُمل ... معتمداً في نقل اللغة على الأصول المشهورة الموثوق بها ".

إلا أنه أغفل ثبْت هذه الأصول ومؤلفيها ، خلاف ما فعله

الفنجديهي قبله . ولعل هذا الإغفال يُعد إيجازاً مخــلاً ، مـادام الـرازي يهدف إلى إضفاء طابع الإقناع والتشويق على أسلوب صياغة خطاب مقدمته . لأنه تطرّق – مقابل ذلك – إلى جزئيات في علم الصـرف ، حبذا لو أثبت في مَوضعها أسماء تلك الأصول ومؤلفيهـا ، ومـن تلـك الجزئيـات قولـه : "... مُبَيَنـاً أوزان الأفعـال والمصـادر ، وبردِّهــا إلى الأوزان المشهورة ، فإذا قلت في كلمة إنها من باب كذا ، فإني أعـني أنها توافقه في أوزان ماضيه ومضارعه ومصدره والمشـهورة لا محالـة . ولّما كان الرازي على بيّنة من غرابـة ألفـاظ المقامـات الحريريـة ، فإنـه طمأن من ينوي قراءة شرحه على عنايته بالكشــف عمَّـا اعترَاهـا مـن غموض ، وكذا منهجه في شرحها ، حيث يقول : " وأمّا ألفـاظ نـص المقامـات فـإني أوردتهـا أولاً في الشـرح سـرداً ، ثـم شـرحتها علــى الولاء".

ولعله اختار تقنية سرد مَتْـن المقامـة كـي يمكّـن القـارىء مـن قـراءة المتن قـراءة متواصلـة ، يتلـوه شـرح ألفاظهـا شــرحاً مقرونــاً بالاستطراد .

والشرح الرابع من شروح مقامـات الحريـري المخطوطـة هـو شرح الفقيه أبي عبدالله محمد بن منصور المعـروف بـابن جماعـة الـذي عزا دافع تأليفــه إلى الاستجابة لطلـب سـيد عظيـم يكـنُّ لـه التقديـر والود، يقول بعد ثبتٍ للديباجة الدينية : "... وإلى هذا فإن بعض مـن خلَص لنا ودّه ... رغب في شـرح إعـراب المقامـات ومـا أشـكل مـن إعرابها ، ونسـبة مـا سـبك مـن الأقـوال إلى أربابهـا ، فـأجبت إجابـة مُسْعِف ..." (١٦) .

وهـذا الخطـاب المقدَمِيُّ يَعكـس ظـاهرة شـائعة في مؤلّفَـات

تراثيَّة، تتمثل في استجابة مؤلِّفِيها لِطلب ذي سلطة مادية ، أو ذي جاه له سلطة معنوية عليه ، حينما يطلب أحدهما منه تأليف مؤلَّف في جنس من أجناس الثقافة العربية العامة . وبيَّن أن من خصائص المنهج الذي اتَّبعه في مُصنَّفه خاصة توثيق الآراء والأقوال ، وذلك بإيراد مصادرها .

والشرح الخامس الذي مازال مخطوطاً – وقد حقَّقنا قسماً منه – هو المَوْسوم بِـ " المقالات الجوهرية على المقامات الحريرية " تأليف : خيْر الدين بن تاج الدين إلياس المدني (١٠٨٦ – ١١٢٧هـ) الأديب الشاعر والخطيب بالمسجد النبوي الشريف ، والقاضي المُفتي[١٧] الذي اتخذ خطاب مقدمته وسيلة لإضفاء طابَع الشرعية على شرحه المطوَّل ، اعتماداً على دوافع ثلاث :

١ – إنقاذ ما تبقى من شرح مولاه الشيخ العلاَّمة أبي بكر الزمزمي الشافعي علي بن عبدالعزيز (٩٠٠ – ٩٧٩هـ) الذي اخترمته (الشرح) منيَّة الضِياع وبدَّدت شملَه بعد الاجتماع ، وتمزَّق بُرْدُه القشيب .

٢ – قيمته العلمية والأدبية ، ومنهجيَّتُه المُضيئة ، يقول : "فإذا هو شرح يُرحَل إليه ، ويُعض بالنواجذ عليه ، لا بالطويل المُمِل، ولا بالقصير المُخل ، أضاف إلى جزالة اللفظ سلاسة المعنى "[١٨] .

٣ – دافع مشترك بين مؤلِّفين قُدامى ؟ وهو الاستجابة لِذِي سلطة تجب طاعته ، أو ذي جاه تشرئبُ الأعناق إلى محامده ومفَاخره، دعاه إلى إبداع مؤلَّف اختار له موضوعه . إلا أنه لم يُصرِّح باسمه – كدأب مؤلِّفين آخرين – وإنما اكتفى بالإشارة إلى مناقبه في قوله :

" فطلب مني مَن أرى طاعته غُنْماً ، ومخالفته غُرْماً ، من هو مني بمنزلة الإنسان من العين ، والعين من الإنسان ، وجمع من الخصال الحميدة ، والفِعال المَجيدة ، ما سارت به الركبان ... أن أُكْمِل ذلك وأحْذو بحول الله وقوّته ... فأجبتهُ إلى سؤاله ".

فإذا كان الداعي إلى التأليف شخصاً حقيقياً أو كان متخيَّلاً مُفترَضاً عند الكاتب ومصدَّقة حقيقته عند المخاطب فإنه يُثير تساؤلاً عن درجة الحصيلة الإبداعية التي سيرقى إليها ذلك المصنّف الذي ربما لم تكن لصاحبه رغبةٌ في تأليفه من قبلُ ؛ وهو الأمر الذي أشار إليه العالم المغربي محمد بن العربي الأدُوزي[19] – الذي عاش في القرن الثالث الهجري – في أرجوزته المخطوطة التي سجَّل فيها الرحلة التي قام بها رُفقة شيخه سيدي الحسن ألتّمْكِدْشْتي من أدُوزبسوس صوْب السلطان حسن الأول المستقر بمراكش ، حيث يقول في خطاب مقدمتها بعد حمد الله الكبير المتعالي ، والصلاة على النبي وصحبه ، والآخذين بطريقه :

وبعدُ ، هذي رحلةُ الأدُوزي — كافلةً بمَغْنَم مَحُوز
نظمْتُها نظماً بلا سُؤال — مِن أحدٍ ، بَل إنها من بالي
لِعلمي أنّ ما أتى بلا سؤال — أقربُ مَوقِعاً لدَى أهل الكَمالْ

فقد صرَّح في أرجوزته الطويلة بمُخالفته التقليد المتَّبع عند بعض المؤلفين – وضمنهم بعض شُرّاح مقامات الحريري – الذين كانت كتابتُهم لمؤلَّفهم استجابة لطلب ذي سلطة ، وتلبية لرغبته ، وكأني بالأدوزي الراجز يَنتقد الذين عزَوا دافع تأليفهم لمصنَّفهم إلى ذي سلطة ، انطلاقاً من تصريحهم بذلك ، على الرغم من كون بعض

العلماء قد نَبّه إلى أن ذلك الداعي متخيَّل مُفترض ، وهدفه من هذا الادّعاء هو استجارته بذي سلطة يحميه من أعدائه ، وقد يكون الراجز على ثُلةً من المؤلفين الذين أؤتُمِروا حقيقة بأمْر ذي سلطة أو جاه . لذلك افتخر بكوْن موضوع أرجوزته من بنات أفكاره ، فأشاد بمن هداه تفكيره إلى اختيار موضوعٍ والإبداع فيه ، مُبْرزاً وقْعه الحسن في أهل الكمال . وملمِّحاً لاتصاف الفئة المتبعة لتلك السُّنة التقليدية بالنقص ؛ ولعله يقصد ضعف إبداعهم ، وعدم استحسان أهل الكمال له ، ربما يسببِ شُبهة طلب مَنفعة .

لكنني أرجح أن العلماء والأدباء الذين طُلب منهم – فعلاً – إنجاز عملٍ إبداعي يتميزون بكونهم هم من الرصيد المعرفي والقدرات الفكرية ، والاستعداد العلمي والإبداعي للخوض في الموضوع المطلوب منهم التأليف فيه ، مما يؤهلهم لكتابة مؤلَّفٍ يتضمن فوائد جمَّة يستفيد منها من نظر فيه باحثاً عن دُرره ، فضلاً عن كونه يحظى بتقدير مَنْ مارس عليهم سلطة مادية أو معنويَّة لإنجازه .

ومن المحتمل أن يكون المدعو إلى الخوض في ذلك الإبداع مهتماً بالموضوع الذي طلب منه إنجاز بحث فيه ، فتكون تلك الدعوة حافزاً مباشراً وتأثيراً يمارس عليه سلطة معنوية .

وإذا كان خِطاب المقدمات في بعض " المؤلَّفات يتضمَّن مخلَّفات نشوة الانتهاء من كتابة الكتاب فإن صاحب المقالات الجوهرية على المقامات الحريرية " تفادى أن يُسيء به البعض الظن فيتهمه بالغرور لّما صرَّح أنه سيَحذو العلاَّمة الزمزمي ؛ شيخ التحقيق وإمام التدقيق ، السابق في حلبة الفَخار ... فأبان عن تواضعه ، على غِرار الحريري نفسه الذي رام تقليد بديع الزمان الهمذاني " وإن لم

يُدرك الضَالع شأو الضليع "[٢٠]، فقال خير الدين إلياس : " وإن كنت لست من فرسان هذا الميدان ، ولا مِمَّن يُشارُ إليه بالبَنان في هذا الشأن "، وحتى لا يثير هذا التواضع الشك في مؤهلاته الأدبيَّة والعلميَّة قال : " غير أنه من تشبَّه بقوم فهو منهم ، ومن أحبَّ قوْماً فلا غِنى له عنهم "[٢١]. وفي آخر خطاب المقدمة لهذا المصنَّف تطرق خير الدين إلياس إلى تحديد النقص الذي شرع في إكماله ، وحجمُه مقدَّر بخُمْسِ شرح المقامات الخمسين ، وهذا التحديد يُعَدُّ من مقاصد مقدمات بعض المؤلفات التراثية ، لأنه توثيق ينسبه مصنَّف – ضاعت صفحات متفرقة منه – إلى مُبدعه . ولولا الأمانة العِلمية في شاهدنا هذا لما وصل إلى علمنا أن للعلاَّمة الزَّمزمي شرحاً قيِّماً لمقامات الحريري . كما أن مقدّمات الكتب التراثية تُوثِق نسبة المؤلَّفِ إلى صاحبه ، وهو ما يتضمَّنه خطاب مقدمة مبدع المقالات الجوْهرية على المقامات الحريرية الذي يقول : " أما بعد ، فيقول فقير رحمة ربهْ وأسير وصْمَةِ ذنبهْ ، خير الدين بن تاج الدين إلياس "، ويقول : " وسمَّيتهُ المقالات الجوهرية على المقامات الحريريَّة ". وهذه المَرْجعيَّات التوثيقية تكاد تنفرد بها المؤلَّفات التراثية ، في حين نجد طبيعة خطاب مقدمات الكتب الحديثة المتأثِرة بمنهج الكتابة الغربية والإستشراقيَّة ، لا تستدعي ثبْت مثل تلك المرجعيات التوثيقيَّة .

أما الشرح السادس الذي صدر مطبوعاً طبعة غير محقَّقة – حسبَ ما نعلم – فمؤلَّفه هو أبو العبَّاس أحمد بن عبدالمؤمن الشريشي الذي سار على منوال منهجيَّتِه الشارح السابق الذكر خير الدين إلياس المدني ؛ تلك المنهجيّة التي تتمثَّل في الديباجة الدينية التي استهلَّ بها كل منهما خطاب مقدمة شرحه ، والسَّبق في بعض مكونات هذه المقدمة يعود إلى الشريشي الذي استهلّها بالحمدلة ، ثم أشار إلى ما

يُكسِب مصنَّفه الشرعية ، مُشيداً بالقيمة الكُبرى للفصاحة العربية ، يقول : " الحمد لله الذي اختص هذه الأمَّة بأفصح الألسنة ، وأفسح الأذهان ، وشرَّف علماءها بالافتنان في أفانين البلاغة والبيان ، وميَّزتا بين سائر الأمم بالنثر المتَّفق الفِقَر ، والنظم المعتدل الأوزان "[٢٢] ؛ وهو استهلال يوحي بتضمُّن مقامات الحريري لأساليب بلاغية ، وصور بيانية ، ونثر فنّي مسجوع ، وشعر رصين . ثم أومأ إلى ثمرة جده الذي لا يَكلّ ، وعقله الثاقب لاستمالة القارىء ، وحثه على النظر في كتابه ، فقال : " وشمَّرت على ساعد الجد لا متكاسلاً ولا وانياً ، وعانيت نور المعنى في نور اللفظ ، فأصبحت مجتلياً جانياً ، فاستوعبته أيضاً أبلغ استيعاب ، وقيَّدت من فوائده ما لم أجد قبله في كتاب "[٢٣] .

ثم أسهب في إلقاء الضوء على مميزات منهجه ، محاولاً إضفاء الصبغة العلميَّة على شرحه ؛ من توثيق روابط المتن بسَنَد متصل ، وقد تميَّز بهذا التوثيق العلمي عن الكثير من شرَّاح المقامات الحريرية حيث يقول : " فكان أولَ من أخذتُ عنه روايتها ، وتلقيتُ منه دِرايتها ببلدي الشيخ الفقيه المقرىء أبو بكر أزهرَ الحَجَريُّ ، حدثني بها عن صِهْره الفقيه المحدث الراوية أبي القاسم بن عبدربه القَيسي المعروف بابن جهور عن مُنشئها أبي محمد الحريري "[٢٤] ، وعلى هذا النحو ذكر أنه تلقاها من ستِ قنوات للرواية متصلة بالحريري عن طريق السنَد المتصل ، فضلاً عن روايات أخرى مصدرها جماعة من جلَّة الأشياخ عدداً ما ذُكرَ . ومن القضايا التي انفرد بتناولها في خطاب مقدمته – حسب رأيه – ولم يتتبَّعها أحد على الكمال ، وإن ذكرها فإنما يذكرها استطراداً ، شرح الأمثال ونسبتها جمعاً بين القائلين والأقوال ، وتعريف المشتهرين من الآباء والأبناء الذين ذكر

اسمهم في الشرح ، حيث يقول : " وبيَّنتُ أنسابهم وأمكنتهم وأخبارهم ، وحِرفتهم وآثارهم "[٢٥] وكذا زيادته لِفصلين مُفيدين لم يَر مَن اعتنى بهما سوى أبي سعيد الفنجديهي الذي ألمح وألَمع ، فما شفى ولا أفتح . والفصلان : " أحدهما تبيين مأخذ الحريري في الكلام ، وإخراج الإحالات المُودَعة فيه من حيز الإبهام ، والردُّ إلى المَنشأ في آية أو أثر ، أو خطبة أو خبر ... والفصل الثاني : التنبيه على صناعة البديع ، وتَوْقِيَّة أسمائه ... وبسْط أنواع الأدب وافتنانه ، والإكثار من الشعر في مظانه ..."[٢٦] .

وقد أكد الشَّريشي أنه أضفى على شرحه الطابع التوثيقي الذي تفرضه الأمانة العلمية ، وسلك منهجاً يتّسم بعرض ما يراه قادراً على استمالة القارىء إلى النظر في شرحه ، وذلك بتطرقه لمواضيع مختلفة تطرُّقاً يستوجبه شرح ما غمض في مقامات الحريري أو أشكل ، أو يؤدي إلى الاستطراد الذي يُعتبر سمة بارزة في منهجه ومنهج باقي الشروح المطوَّلة . يقول : " فمِن تمام التصنيف ردُّ الفرع إلى أصله ، والجمعُ في الترتيب بين الشكل وشكله ، فأتبعتُ المواعِظُ بما يزيدها أثراً في القلوب ، وأردفت المسليات بما يُعينها في إجلاء الكروب "[٢٧] .

وعليه ، فإن هذا العالم الأديب حظي بشرف الانفراد بثبْت خطابِ مقدمة سطَّر فيها منهجه في شرح هذا بتفصيل تخلَّله الاستطراد ، وبأسلوب راق به الأخذ بلُبِ مَن يسعى إلى العَب من حوض مختلف العلوم ، يقوم على إبراز قضايا يقول إنه انفرد بتدارسها، وكذا إيجاز الفوائد الجمَّة التي التقطها من الأسنة ، ومن التصانيف المستحسنة ، لكنَّ المادة الغزيرة المتنوعة المصادر التي قطفتها

جهوده كانت مقرونة بآرائه الشخصية ، يقول : " فباحثتُ وناقشت، وتأوّلتُ وتداولت ، وطالبت المتحفظ بالأداء ، حتى لم أبْقِ في قادحةٍ زَنْداً إلا اقتدحته "[٢٨].

نخلص إلى القول بأن خطاب المقدمات في بعض شروح مقامات الحريري ، التي أوردنا شواهد منها ، تتشابه في الاستهلال بالديباجة الدينية ؛ تطول أو تقصر ، والإشادة بقيمة اللغة العربية وبلاغتها ، وربط هذا بما تتضمنه المقامات الحريرية من لغة عربية قُحَّة مغرَقة في الغرابة ، وتراكيب تحتاج إلى من يجلّي غموضها للكشف عن دلالتها ، ومنهم من يعزو دافع تأليف مصنّفه إلى داع ذي سلطة مادية أو معنوية ، يغلب على الظن أن معظم أولئك الدُّعاة وهْمي ، متوخياً بذلك هدف ما . ومنهم من يُسهب فيبسط القول في عرض منهجه ومضمون مؤلفه لإقناع القارىء بأنه إبداع جدير بالقراءة .

الهوامش

١ – لسان العرب (خطب) .

٢ – تحليل الخطاب الروائي : سعيد يقطين ، الطبعة الثانية ١٩٩٣ .

٣ – الخطاب العربي المعاصر ، دراسة تحليلية نقدية : محمد عابد الجابري . الطبعة الثانية ، دار الطليعة ، بيروت .

٤ – بحث للدكتور حمد ناصر ، نُشر في " أخبار التراث العربي " عدد ١٤ يوليو ١٩٨٤ .

٥ – كشف الظنون لحاجي خليفة ، ج٢ ، ص ١٧٨٧ – ١٧٩١ ، منشورات مكتبة المثنى، بيروت

٦ – نفسه ، ج٢ ، ص ١٧٨٧ .

٧ – فن المقامات بين المشرق والمغرب ، ص٩ ، دار القلم ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٩ .

٨ – العَلم الثقافي ، عدد : ٨٢٦ ، السنة : ١٧ ، الصادر بالمغرب يوم السبت ٢٣ مايو ١٩٨٧ .

٩ – مجلّة البيّنة ، ص ٧٢ ، السنة الأولى ، عدد : ١٠ الصادرة بالمغرب في فبراير ١٩٦٣م .

١٠ – مغاني المُقامات في معاني (مخطوط) رقمه بالخزانة العامة بالرباط : د ١٧٨٧ .

١١ – نفسه ؛ انظر المقدمة .

١٢ – نفسه ؛ انظر المقدمة .

١٣ – شرح مقامات الحريري للعُكبري (مخطوط) ، رقمه بخزانة جامع الزيتونة بتونس : ١٦٠٦٣ .

١٥ – نفسه ؛ انظر المقدمة .

١٦ شرح المقامات الحريريّة لابن جماعة أبي عبدالله محمد بن منصور (مخطوط) رقمه بالخزانة العامة بالرباط : ق ١٠٩٠ ، انظر المقدمة .

١٧ – المقالات الجوهرية على المقامات الحريرية (مخطوط) حققنا القسم الأول منه ، من المقامة الأولى إلى المقامة العاشرة ، رقم الجزء الثاني : ق ، ق. ٥٦ . ورقمه بالخزانة الملكية بالرباط : ٢٥٢٦ ، ورقمه بالخزانة العامة بالرباط : ١٦٥٩٥ . وبها نسخة أخرى ، رقم الجزء الأول : جـ ٩٣٦ ، الجزء الثاني : جـ ٧٦٥ .

١٨ – المقالات الجوهرية على المقامات الحريرية ، القسم المحقّق ، ص ٧١ .

١٩ – محمد بن العربي الأدوزي : أحد علماء المدرسة الأدوزيّة السوسية بالمغرب ، عاش في القرن الثالث عشر الهجري ، بلغت تآليفه ستة وعشرين مؤلفاً في مختلف العلوم والمعارف المتداولة يومئذ ، سجّل وقائع رحلته في رجز طويل يقارب ثلاثة مائة وألف بيت ، حسَب إحدى النسخ المخطوطة ، انظر ترجمته في المعسُول للمختار السُّوسي ، ج٥ ، ص ١٤٩ ، وانظر قراءة في رحلته للأستاذ محمد الحاتمي ، مجلة " المَناهل "، العدد: ٥٣ ، السنة ٢١ شعبان ١٤١٧ – دجنبر ١٩٩٦ ، وزارة الشؤون الثقافية المغربية .

٢٠ – شرح مقامات الحريري للشّريشي ، ج١ ، ص١٧ ، الطبعة الثانية ، سنة ١٩٧٩ ، المكتبة الشعبية .

٢١ – المقالات الجوهرية على المقامات الحريرية ، القسم المحقق ، ص ٧٢ .

٢٢ – شرح مقامات الحريري للشّريشي ، ج١ ، ص٥ .

٢٣ – نفسه ، ج١ ، ص ٧ .

٢٤ – نفسه ، ج١ ، ص ٦ .

٢٥ – نفسه ، ج١ ، ص ٧ .

٢٦ – نفسه ، ج١ ، ص ٧ – ٨ .

٢٧ – نفسه ، ج١ ، ص ٨ .

٢٨ – نفسه ، ج١ ، ص ٦ .

❁❁❁